الهوية الثقافية وإشكالية الحوار الحضاري. قراءة في رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" للروائي الجزائري " عمارة لخوص "

أ. منى دوزة
جامعة قسنطينة

الملخص:

بعد قراءة الرواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لخْوص جاء هذا المقال للبحث في أزمة الهوية، أهي أزمة ثقافية، شخصية، أم أنها شمولية عالمية؟ وهل العولمة تقضي على التنوع الهوياتي أم ترسّخ هذا التنوع وتزيد من حدّته؟ وعليه فقد كشفت لنا الرواية عن خطاب هوياتيّ أيديولوجي مضمر ميزته الأساسية الهجرة، العنصرية، وصراع الأنظمة الرمزية والأنساق الثقافية التي تؤطر الهويات المختلفة المتطلعة إلى الحوار مع الحضارة الغربية... غير أن القراءة قد كشفت عن عسر الحوار الحضاري وذلك بعد النبش عن الدلالات المتخفية والمبطنة في الرمزي والأسطوري ومختلف الخطابات الفلسفية والثقافية والمعرفية في صراعها من أجل إثبات الذات.

الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافية؛ صدام الحضارات؛ حوار الحضارات؛ الانتماء؛ قوة الأنا؛ بنية الشخصيات تشظي الزمن؛ المفارقة.

Résumé:

Le présent article, rédigé suite à la lecture que l'on a faite au roman'' Comment tu te fais allaiter de la louve sans qu'elle ne te mord'' de l'écrivain Algérien ''LAAMARA Lakhouas'', traite la crise identitaire, est –elle une crise culturelle ou personnelle, ou s'agit –il d'une globalisation mondiale ? Est-ce que la mondialisation élimine la diversité identitaire ou bien renforce-t-elle cette diversité et augmente son intensité ? Notre lecture nous a révélé un discours identitaire idéologique implicite, dont la caractéristique principale est : l'immigration, le racisme, le conflit des codes symbolique et des systèmes culturels englobant les différentes identités visant le dialogue avec les civilisations occidentales, Mais aussi la difficulté d'un dialogue de civilisations suite à des indices implicites sous-jacentes dans le symbolique et le mythologique et les différents discours philosophiques ,culturelles et scientifiques dans leur quête de soi.

Mots clés : identité culturelle ; dialogue des civilisations ; l'appartenance ; la force de l'ego ; la structure des personnages.

مقدمة:

اهتمت الأعمال الأدبية بالقضايا المتعلقة بالهوية لتضعها ضمن أولوياتها الثقافية والأيديولوجية، وقد نُظر إلى الحوار بين الحضارات على أنه إحدى السبل الأجدى والأسلم لصون هذه الهوية من معضلات الوجود وحمايتها من اشتراطات الواقع القاهرة من الآخر الغربي الذي يهدّد بالعدوان الداخلي والخارجي معا.

"كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" للروائي الجزائري عمارة لخوص نص روائي يطلعنا على خطاب هوياتي ميزته الأساسية هو صراع الأنظمة الرمزية والأنساق الثقافية التي تؤطر كل هوية وكل وجود، هو خطاب يتتبع نماذج بشرية تسعى لإثبات كيانها واسترجاع هويتها المهمشة بوقوفها في وجه الآخر وذلك بتبني الثقافة الإيطالية وتمثلها وذلك في إطار ما يسمى "الهويات المتعددة".

أثارت الرواية أسئلة الهوية في إطار الحوار مع الحضارات، كشفت عن أزمة الانتماء القومي من جهة وعن عسر الحوار بين الحضارات من جهة أخرى... ناقشت القضية لكن بصورة فنية مغايرة، في محاولة فك اللغز "ما هوية القاتل؟" تواجه الذات أخطر الأسئلة، أسئلة لاتجد لها جوابا واضحا: كيف كنت؟ وكيف أصبحت؟ وكيف أكون؟ من أنا ثقافيا؟ من أنا جينيا؟ .

وهي أسئلة تقود حتما إلى إشكالات أعمق: هل الهوية هي ما يدركه الإنسان عن ذاته أم هي ما يدركه عنه الآخرون؟ هل الهوية تتحدّد في من نحن ومن هم؟ هل هناك هوية نقية ثابتة، أم أنها نسيج من هويات أخرى؟ هل أزمة الهوية هي أزمة ثقافية وشخصية إنية أم شمولية؟ هل العولمة تقضي على التنوع الهوياتي أم ترسّخ هذا التنوع؟ وما مستقبل الهويات الثقافية والدينية في ظل امتداد ظاهرة العولمة واكتساحها للعالم كله؟ .

أولا: الهوية الثقافية. تحديد المصطلح:

01- الهويـة:

تعد مقولة الهوية موضوعا للتفكير الفلسفي منذ أقدم العصور وإلى الآن، تداخلت مقاربتها مع مفاهيم عديدة كالجوهر، الماهية، الإنية، الذات وغيرها. فهي كمفهوم فلسفي تجريدي تعرّف منذ أرسطو على أنها الجوهر الثابت أو حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره. والهوية كما جاءت في لغة العرب هي الذات والأصل والانتماء والمرجعية والماهية والجوهر والحقيقة والثوابت والمبادئ والتشخص، والشخص نفسه والوجود الخارجي.

تعرّف الهوية بأنها «مبدأ الفكر والتفكير، ويعني هذا المبدأ تطابق الشيء مع ذاته وعناصره، رغم التحول والتغيّر الذي يطرأ عليه، ويتم التعبير عنه بصيغة رياضية: أ=أ، ينتمي هذا الطرح إلى المنظور الذي يقول بجوهرية الهوية وثباتها، أي باعتبارها كيانا ثابتا، مميزا للفرد لا يتغيّر بتغيّر الظروف»[1]، لكن وبحكم اجتماعية الفرد وارتباطه بالأنساق الثقافية لمجتمعه فهو بحاجة إلى مثاقفة تصقل شخصيته وتنميها، وحينها يتجلى الاختلاف بين الذات والآخر، فيتحقق للهوية وجودها الكينوني الذي ينطلق من الاختلاف والتمايز والتميّز. وبالتالي فـ«الهويات متناقضة ومفككة عن بعضها البعض. ولا يمكن لهوية واحدة أن تشتغل كهوية متكاملة وشمولية، ثم إن صيرورة الهويات مرتهن بطريقة تمثيل وتسيير الذات، وبهذا فذواتنا مشكلة من تضافر أجزاء متشظية لعديد الهويات، وعلينا قبول اعتبار التمظهر الشكلي للهوية كفصائل مختلفة، تشكلت وفق مرجعيات وارتهانات تاريخية وثقافية، ويمكنها الانشطار مجدّدا والظهور بشكل مغاير»[2].

ولما كانت الهوية في العصر الحداثي وليدة ظروف عالمية فإننا ننظر إليها كمصطلح أيديولوجي مرادف للوحدة والوجود والذاتية والخصوصية، تتشكل بتكامل مجموعة من المعطيات المعرفية والثقافية والتاريخية المتميزة التي لا يمكن تحقيقها إلا عبر الإحساس بها عبر مشاعر الانتماء، التكامل، الاستمرارية الزمنية، التنوع، القيم، الاستقلالية، الثقة بالنفس، والوعي بالوجود. والهوية متحوّلة تبعا لتحوّل الواقع، مكتسبة على اعتبار أن الإنسان هو الذي يخلقها وفق صيرورة ومنطق التحوّل. ومحددات الهوية هي اللغة، الدين، والذاكرة القومية.

02- الثقـافة:

ثقّف في اللغة العربية بمعنى قوّم، فقد قالت العرب "ثقّفت الرمح" أي قوّمته فجعلته في أحسن صورة.

وتعرّف الثقافة بأنها «مسعى بشري، فكري ووجداني، قابل للتطور والتجدد والارتقاء، وصفة تكتسب بالتمرين والممارسة»[3]، فهي شرط التقدم والتطور والنمو والاقتدار وتطوير الذات لتخطي حتميات الطبيعة.

والثقافة لدى آخرين «تشمل كل ما يكوّن العقل، ويربّي الذهن، ويهذّب الطبع، ويقوّم السلوك، مما يتداوله الناس فرادى وجماعات، بوعي وقصد أو بدونهما، من مبتكرات الحياة المتجدّدة باستمرار، ومن شتى أنواع التراث المتمثّل في الآثار العمرانية والمبدعات الشعبية والقيم الراسخة والعادات والتقاليد، وما إليها من مشاعر وأحاسيس تكيّف الذات وتميّز الهوية»[4].

وترتبط الثقافة ارتباطا وثيقا بالحضارة، فهي فرعها المعنوي باعتبارها وعاء القيم والأفكار. فمن أقدم التعاريف وأشدها رسوخا التعريف الذي قدّمه الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد بيرنت تايلور، يقول: «الثقافة أو الحضارة بمعناها الإثنوغرافي هي ذلك

الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع»[5].

الثقافة –إذن– مرتبطة بالهوية والذات والعقل، تمتلك خاصية هي قابلية الانتشار فتسمى "مثاقفة"، أما إذا حدث هذا الانتشار بين طرفين تفصل بينهما هوة واسعة فإنه يسمى "غزوا ثقافيا".

03- الهوية الثقافية:

المقصود بالهوية الثقافية تلك المبادئ الأصيلة السامية التي تمثل كيان الأمة، فتمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، التاريخية، العقائدية، الحضارية، والمستقبلية مما يعمق الشعور الانتمائي للأفراد أو الشعوب.

والهوية الثقافية هي «وجه الثقافة الموحد والمميّز الذي يُشعِرُ الفرد بأنه ينتمي إلى ثقافة أو حضارة معيّنة، ويجعل الأفراد يشعرون بالتماثل والتقارب بالانتماء إلى تراث واحد، ويزوّدهم ببطاقة هوية، فهي المظاهر الثقافية المشتركة بين أعضاء الجماعة التي يتم إبرازها وتأكيدها لتمييزها عن غيرها من الجماعات»[6]. أما عناصرها فهي العقيدة، اللغة، والتراث من تاريخ وعادات وتقاليد وأعراف وحقوق وآداب وفنون وطريقة التفكير وطرائق اللباس والأكل والمعمار والغناء والتصوير والزخرفة والتزيين...وغيرها من مقوّمات الثقافة.

ينطلق القول بالهوية الثقافية من المصادرة على تعدد وتنوّع واختلاف الثقافات، «لأن التخلي عن الهوية الثقافية المتوارثة أو التنكّر لها هو بالنسبة إلى أي أمة من الأمم نوع من الانتحار الحضاري... ذلك أن قوة الماضي لا تقلّ حدّة عن قوة الحاضر، وتملّك التراث لأصحابه لا يقلّ قوّة عن الصدمة التي تحدثها فيهم الحضارة الحديثة إن لم تكن تفوقها»[7]. والعولمة في شكلها الثقافي –هي الأخرى– ترفض التنوّع والاختلاف، وهو ما سيقود إلى التفسخ، الصراع، والصدام بين الثقافات.

04- الهوية الثقافية في ظل تحدّيات العولمة/ أزمة الهوية:

قد يكون من العادي أن تتعاون بعض أشكال الثقافات البشرية فيما بينها وتتفاعل على الرغم من كونها مختلفة، فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء لبناء الذات. بذلك سيكون التفاعل الحضاري نوعا من أنواع التحدّي الذي تواجهه الحضارة، شريطة أن يكون التفاعل بين "الأنا" و "الآخر" تأثيرا وتأثرا، أخذا وعطاء، لقد «تبدّى حوار الحضارات في العناية بالخصوصيات الثقافية وعناصر التمثيل أعرافا وطقوسا وتقاليد وديانات ومعتقدات، مما يحسّن عمليات اندغام حوار الذات مع حوار الآخر استنادا إلى وعي التاريخ واستشراف المستقبل... فيكون الحوار مبنيا على التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلجة المصلحية»[8]، ولكن «عندما يصبح الاختلاف الثقافي ذريعة للتعصّب العنصري، ولنزعة التفوّق والامتياز العرقي التي تنشر فكرة عدم التكافؤ والمساواة بين الثقافات البشرية، فعندئذ يكتسي المشكل طابعا آخر، وتنجم عنه إسقاطات أخلاقية وسياسية، وأنواع من السلوك المادي والمحتقر لثقافة الغير. وهنا يصبح السؤال المحرج، عن العلاقة بين الاختلاف الثقافي وتعدّد الأجناس والسلالات البشرية، سؤالا ملحّا»[9].

إن الحضارة الغربية وضعت لنفسها هدف السيطرة على العالم وإخضاعه لسلطانها لخدمة الأقلية لا لخدمة المجموع الإنساني العام، الغرب غير مستعدّ للتعايش مع الحضارات والثقافات مما نتج عنه تلوّثا حضاريا فيما يخصّ القيم. يقول صامويل هنتنجتون في كتابه "صدام الحضارات": «لن تكون الأيديولوجيا والإقتصاد أساس المشاكل العالمية في المستقبل، ولكن الثقافة. ستظل الدول تلعب السياسة الدولية مع بعضها بعضا لكنها أحيانا ستلعب مع مجموعات حضارية وثقافية مختلفة. لهذا، لن يكون الصراع في المستقبل بين الدول، ولكن بين الحضارات»[10]. فالصراع صراع حضاري بالدرجة الأولى، الإسلام فيه هو الفاعل الأساسي والثقافة المستهدفة هي الثقافة العربية الإسلامية.

لقد راح العقل الغربي يحوّل إرادة المعرفة التي جبل عليها الإنسان إلى إرادة للهيمنة والسيطرة والتمييز العنصري واللا أمن، ثم أخيرا تغريب العقل العربي وتحقيق الاستلاب الثقافي، هذا الذي أضحى «أهم عقبة فعلية أمام عملية النهوض الحضاري في العالم العربي والإسلامي. لأن هذا الاستلاب يلغي فعالية كل فكرة، ويمنع عملية التفاعل الخلاق مع تلك الأفكار والرؤى التي تعبّر عن أصالة الأمة ونموذجها التاريخي. وأن أخطر أثر يصنعه الاستلاب الثقافي في الأمة، أنه يزيل القدرة الذاتية التي تدافع عن قيم الأمة وأصالتها، وبالتالي تصبح الأمة، لغياب القدرة الذاتية، عرضة لكل تيار ومدرسة خارجية»[11]، فكان من نتائج العولمة الثقافية أن أضحت الشعوب تواجه ما يسمى بأزمة الهوية وغياب الروح القومية، لأن «صنّاع العولمة ..هم يراهنون على النظر إلى مسألة الهوية خارج الأفق الذي تتحرّك فيه، وتجاوز منطق التاريخ والعرق والثقافة والدين واللغة والوطن والعمل على بناء هوية عالمية كونية»[12] غير محددة المعالم.

ثانيا: الهوية الثقافية في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" للروائي الجزائري عمارة لخوص:

"ما هوية القاتل؟" هو السؤال اللغز الذي تدور حوله الرواية في ظروف حاسمة تتّسم بالقلق والتوتر والعنف، أصبح الإنسان في عالم التيه حبيس أنماط ثقافية تشعره بالاغتراب عن هويته، وبالتالي لكي يحقق وجوده داخل ثقافة الآخر عليه تجاوز إكراهات التاريخ وتبني المنظومة الثقافية لهذا الآخر بما في ذلك اللغة التي تعمل على كسر الحدود بين الهويات. حاول"أميديو" تبني ذلك، وعليه فإننا سنحاول الوقوف عند تمثيلات الهوية في "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" في العناصر التالية.

01- الأنساق الدلالية للعنوان (المفارقة والرمز):

العنوان "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" مؤشر تعريفي وتحديدي يفصل بين العدم والوجود، بين الفناء والامتلاء، بين الحاضر والماضي محاولا أن يحوز كينونة وهوية. إنه يمد شباكه ليمارس لعبته التناصية والترميزية فيتلهى بالهدم والتحويل والقلب والبعثرة والتفكيك على مستوى البنية اللغوية، غير أنه يمارس سطوته فيوقع القارئ في فخاخ التأجيل والإرجاء الدلالي؛ وعليه فإننا نقرأ العنوان عبر محاور متعددة:

كيف: علامة استفهام، وهي دال لغوي مقتصد لغويا يشير إلى البنية النصية العامة للرواية.

ترضع: الإمكانات التأويلية لهذه المفردة توحي بالحليب الذي يرمز إلى الصفاء. الرضاعة هي محاولة الاندماج الحذر في الوسط الجديد.

الذئبة: يبدو أن الراضع هو شخص فاقد الأم أو لا هوية له، أما المرضعة فهي الذئبة. إنها حذرة، ماكرة، فطنة، لها ابنان. الذئبة ؛هذه المفردة أحدثت ارتباك نشاط دلالي عبر الانخراط في علاقات تناصية أسطورية تؤسس نصية العنوان لتجعل منه نصا مكمّلا لأسطورة النشأة (أصل روما). تقول الأسطورة أنه "ولد روموولوس وريموس" في المدينة الإيطالية القديمة "ألبا لونجا"، «وكان الملك نوميتور يحكم ألبا لونجا إلى أن أقصاه عن الحكم أخوه الأصغر اموليوس وقام هذا الأخير بقتل أبناء نوميتور، وأرغم ابنة نوميتور ريا سلفيا على أن تصبح كاهنة عذراء، حتى لا يخرج من صلبها أطفالا سيشكّلون خطرا على عرش الملك الطاغية إلا أن الإله مارس أغوى الفتاة، فأنجبت منه التوأمين، فأمر الملك بإعدام والدتهما، ثم وضع الرضيعان في سلة ، وقذفهما في النهر، إلى أن ألقى بهما على الشاطئ، وتجدهما الذئبة فتتولّى رعايتهما»[13].

الذئبة هي روما، إنها رمز يوحي بالانتماء؛ «هي صورة لتلك الذئبة التي منها بدأت معالم مدينة عظيمة تخرج إلى التاريخ. أن يعيش الإنسان مهاجرا يعني... أن يقترب قدر المستطاع من الذئبة ، ليبحث لنفسه عن ثدي يتلقمه ليرضع منه دون أن يثير غيرة أبناء الذئبة»[14].

دون: تفيد الاستثناء والتميّز، كل من يقترب من الذئبة فهو معضوض لا محالة، أمّا "أميديو" فمتميّز عن غيره لأنه يتقن الرضاعة.

تعضّك: العضّ هو ردّ فعل عنيف من الذئبة، يوحي بالخشونة، العنف، القساوة، والألم الذي ستلحقه على كل من يحاول الاقتراب منها.

إن القراءة التناصية للعنوان أحدثت كسرا في أفقية وخطية الخطاب المقروء لتذهب بنا نحو العمق عبر علاقات حوارية وصراعية متأججة، إننا أمام «اختلاط حواري ...يقذف بالخطاب إلى لجّة الاختلاف وجنون التشتيت والانتشار، حيث تتناسل الدلالات وتتعدّد، ليغدو الخطاب محرقا من جملة محارق تستوطن النص، يضرم بصراع الخطابات وتناحرها وتناكحها: خطابات الماضي والحاضر والمستقبل»[15]؛ فالمهاجر هو ذلك الشخص الذي يتعرّض لكل الاحتمالات الممكنة التي يمكن أن تسفر عن محاولة اقتحام فضاء ثقافي وقيميّ جديد مع الوعي بالمخاطر المحدقة التي تنجرّ عن ذلك.

02- بنية الشخصيات/ الكشف عن الهوية:

تنبني الرواية فنيا على نسق الحوارية التي تنهض على مستويين سرديين؛ المستوى الأول يتجلى في تعدد الأصوات حين حديثها عن الذات وتشابك علاقاتها مع الآخرين، أما المستوى الثاني فهو عبارة عن عواءات متسلسلة رقميا؛ هو حديث الشخصية الرئيسية عن ذاتها وعن الآخرين كتعليقات لإضاءة أحاديث الشخصيات الأخرى.

أ- الشخصيات:

الرواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" تجربة إنسانية تصوّر حياة مجموعة من المهاجرين الذين جاؤوا من مناطق مختلفة من العالم الثالث بحثا عن حياة جديدة في المدينة "روما". يعيش هؤلاء المهاجرين في عمارة تمتلكها سيدة إيطالية بحيّ "فيتوريو" في ظروف صعبة أساسها الطابع الصراعي الذي يضبط علاقة الإيطاليين بغير الإيطاليين. يتعرّض هؤلاء المهاجرين لأشكال من التضييق والعنصرية خاصة بعد أن اكتشف سكان العمارة جثة شاب إيطالي داخل مصعد العمارة وهو "لورانزو مانفريدي" الملقّب بـ"الغلادياتور". المجرم لابد أن يكون واحدا من هؤلاء المهاجرين الذين جاؤوا من بلدان متخلفة ومعروفة بالعنف والإرهاب. كل الأصابع تتجه إلى "أميديو" الذي اختفى يوم الجريمة، سكان العمارة رفضوا فرضية كون "أميديو" هو القاتل. إذن، لماذا يُبرّأ "أميديو" ؟ ما هوية القاتل؟ ما هوية "أميديو"؟ وما هوية شخصيات الرواية؟.

لكل شخصية في الرواية هويّتها التي تميّزها فتجعلها مخالفة للشخصيات الأخرى، كل شخصية «هي مركب إنساني اجتماعي يحكمه اتساقا ليس متجانسا بالضرورة؛ عضوي وبيئي وثقافي شامل، فتنضوي تحت "العضوي" الملامح الشكلية والنفسية، والبنية الجسدية والجنس، وتنضوي تحت "البيئي" مجمل الملامح الجغرافية والتاريخية والانتماء القومي والعرقي، ويشمل "الثقافي" كامل كتلة القيم والمعارف والعادات والتقاليد والأعراف تتضافر لتطبع الشخصية بمقادير متفاوتة من كل منها»[16]. وعليه، فقد جاءت الشخوص مسماة وموصوفة بالقدر الكافي، أمام تعدد الرؤى والأصوات نجد عدم تداخل الرواة في بعضهم البعض حيث تسرد كل شخصية حدثا آخر غير الحدث الذي سردته الشخصية الأخرى بهدف الدخول إلى تفاصيل الحدث والنفاذ إلى الوعي. وفيما يلي تعريف بشخصيات الرواية:

01- باروز منصور صمدي: إيراني، زوج زينب وأب للأطفال شادي وسعيد وصهراب وعمر ، تركهم في بلده، يحب الطبخ، يعمل غاسلا للصحون في المطاعم، ويشرب الخمر كثيرا. كان يرى بأن أميديو لغز يحيّر العقول.

02- بندتا إسبوزيتو: نابولية، تعمل بوابة لأكثر من أربعين عاما، تكره المهاجرين لكنها ترى بأن أميديو إيطالي أصيل، تقول: «بإمكاني التمييز بين الإيطاليين والأجانب...إذا كان السينيور أميديو أجنبيا كما تدّعون، فمن هو الإيطالي حقا؟»[17].

03- إقبال أمير الله: بنغالي (من بنغلاديش)، تعرّض لعراقيل نتيجة خلط الشرطة بين اسمه ولقبه، ساعده أميديو في حل المشكل، قرر تسمية ابنه بـ"روبرتو" ليجنّبه المشاكل البيروقراطية. أما أميديو في نظره فإيطالي متميّز.

04- إلزابتا فابياني: رومية، تعيش مع كلبها "فالنتينو" الذي قُتل، هي امرأة عنصرية تكره المهاجرين، أما أميديو –حسب رأيها- فهو الشخص الوحيد المتسامح في العمارة.

05- ماريا كريستينا غونزاليز: بيروانية (من البيرو)، تخدم امرأة مسنّة تدعى السنيورا "روزا" لتعيل أفراد أسرتها في ليما، لا تملك وثيقة إقامة، وتعيش في قلق لا ينتهي لأنها تحس بأن الحرية على وشك الانتهاء. عن أميديو تقول: «السنيور أميديو قاتل! هذا شيء لا يقبله العقل. أنا متأكدة من براءته»[18].

06- أنطونيو ماريني: رومي، أستاذ جامعي في معهد التاريخ بجامعة روما، مقبل على التقاعد، يرى أن أهل الجنوب هم رموز الكسل والثرثرة والتخلف والنميمة والإيمان بالشعوذة والبربرية وهم ألذّ أعداء الحضارة، لكنه لم يصدّق أن أميديو من الجنوب «لأن طريقته في الكلام والتحية والمشي أشبه بطريقة أهل ميلانو»[19]، لكنه يعتبره شخصا متناقضا لأنه يرتاد المكتبات للدراسة ثم يقضي ساعات في بار ساندرو.

07- يوهان فان مارتن: هولندي، جاء من بلده لدراسة السينما وإنتاجها، يفضّل الواقعية الجديدة لهذا جعل المصعد موضوع الفيلم الواعد الذي يترجح عنوانه بين "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو" "كاتيناشو"، "مصعد ساحة فيتوريو"، أو "صدام الحضارات على الطريقة الإيطالية". كان يقول: «أميديو أجنبي! هل يعقل أن يكون الشخص الذي يمثل إيطاليا العظيمة أجنبيا؟ إنه الوحيد الذي يجيب على أسئلتي المتعلقة باللغة الإيطالية والسياسة والمافيا والطبخ والسينما»[20].

08- ساندرو دنديني: رومي، صاحب بار في روما، تعجّب من حقيقة كون أميديو مهاجرا لأنه يعرف تاريخ روما ومدلولات أسماء شوارعها أحسن من الإيطاليين أنفسهم.

09- ستيفانيا مسارو: رومية، مدرّسة لغة إيطالية، تعمل في وكالة سياحية، تزوجها "أميديو" بعد ثلاث أشهر من تعارفهما بشرط واحد هو ألا تسأله عن ماضيه. إنها تقول «لا أعرف من يكون أميديو؟..»[21] أما ستيفانيا بالنسبة لأميديو «هي الحياة أي الحاضر والمستقبل»[22]، هي التأشيرة التي تضمن بقاء أميديو في روما.

10- عبد الله بن قدور: جزائري، بائع سمك، يظهر متمسكا بدينه ولغته وبلده واسمه، ابن حومة "أحمد سالمي"، الكاشف عن هوية "أميديو". لا يخفي تعجّبه من تغيير "أحمد" لاسمه .

11- ماورو بتاريني: مفتّش شرطة، كان يعتقد أن أميديو متطوع إيطالي يساند المهاجرين، يدقق في هوية المتهم ويكشف عن بقية تفاصيل علاقات النص. هوية القاتل تحددت؛ إنها إلزابتا فابياني.

لاحظنا تعدد «الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوّعها ولا لاختلافها من حدود»[23].هذه الشخصيات هي نماذج بشرية حاول الروائي من خلالها التقاط صورة مصغّرة للعالم الواقعي من حيث العلاقات العامة على اختلافها فيما بينها، هذه الشخصيات في بحثها الذهني عن الحقيقة بعد مقتل الغلادياتور إنما تبحث عن ذاتها ونفسها وهويتها، وبالتالي فهي شخصيات تجسّد فكرة وتعبّر عن موقف أيديولوجي عالمي هو: النظرة الاستقطابية (شرق/غرب) أو (شمال/جنوب). فالشمال هو المركز والمتن، والجنوب هو الهامش والطرف.

ب- أميديو: العواء/ قوة الأنا/ تشظي الزمن، تشظي الهوية:

من خلال خطابه الروائي أراد الكاتب أن يؤسس لصورة هوية جديدة تستطيع أن تقف في وجه الآخر المهيمن على معطيات الحضارة السائدة بكل مكوّناتها وعناصرها ليرسخ مكانها ذاته الحضارية. يُتتبّع البطل طويلا كمجهول ذي هوية إشكالية تناهض العبث والفوضى والاحتمال، وتحمل إرادة وقدرة لبناء ذاتها على قاعدة الحضارة، إنه كفاح الفرد المسحوق الذي يحاول إنقاذ نفسه من التشيّء والتهميش والاغتراب، وتحرير القيم من النزعة العدمية.

01- العواء: في العواءات (العواء الأول..... العواء العاشر، العواء الأخير أو قبل صيحة الديك) يتسلّم "أميديو" السرد، فيتحدث «بلغة حميمة تندسّ ضمن اللغة العامة المشتركة بين السارد والشخصيات؛ وتمثل الحميمية والصدق والاعتراف والبوح»[24]. من خلال ضمير المتكلم (أنا) يستبطن "أحمد" أعماق شخصيّته كاشفا الحدث المتعلّق به، مفصحا عن سيرته المقهورة في ذاكرته المروعة، فهو واحد من شخوص الرواية، يرى ما تراه الشخصيات نفسها ويعرف ما تعرفه لأنها (هو). فالعواءات إفصاح عن مأساة إنسان هذا العصر تحت وطأة التخلف في وطنه والعنصرية في أرض الآخر؛ «سأعوي بقية الليل في هذا العش الضيّق، وأنا أعرف أن عوائي صيحة في واد لن يسمعه أحد غيري. سأودّع هذه المسجلة الصغيرة عوائي المتقطع، ثم أعزّي نفسي بسماعها»[25].

خطاب السارد "أميديو" ينتهي دائما بصوت يحاكي فيه عواء الذئب، وقد عبر في الرواية أكثر من مرة عن عشقه المتنامي للعواء وللذئبة وحليبها: «ما يهمني حقا هو أن أرضع من الذئبة دون أن تعضني وأن أمارس هوايتي المفضلة: العواء! أووووووووووو... »[26]، بل إنه يجعل «العواء نوعان: عواء الألم وعواء الفرح...

[يقول] أما أنا فأعوي من شدة الفرح، أنا أرضع من ثدي الذئبة برفقة اللقيطين روموللو وريمو. أنا أعشق الذئبة ولا أستطيع الاستغناء عن حليبها»[27].

02- قوة الأنا: "أميديو" أمام صراع نظري وعملي لتأكيد الهوية، إنه متأكد بأن فعاليّته من أجل إعادة بناء أناه تقتصر على ثقافته، لقد أدرك أن معركة الذات هي الوجه الآخر لمعركة الحضارة، ذاته وبعد أن تعرّضت لتأثير الحضارة الغربية الكاسح اضطرّته إلى القيام بما يسمى "التنظيمات"؛ وذلك بالمحافظة على الخصوصيات المتعلقة بالانتماء والهوية الأولى ثم العودة إلى الذات، تشخيصها، تنميتها، وتقويتها للانفتاح على المستقبل والعالم وحضارته.

قوة الأنا عند "أميديو" مرتفعة؛ ويتجلى ذلك في قدرته على «معالجة الضغوط البيئية والدفاعية والانفعالية... الضبط الكافي عند التعامل مع الآخرين، وتلقي قبولهم وممارسة تأثيرات حسنة عليهم، واستخدام المهارات

والقدرات المتاحة .. بأقصى طاقة ممكنة، احترام الذات في حدود الأخلاق الحضارية والاجتماعية والشخصية»[28] الميل إلى المخاطرة واقتحام المجهول، الثقة في نفسه وقدراته وتقبّله لذاته وتقديره لها بفاعلية وتوكيدية واتّزان. وإذا كانت شخصيات الرواية تمثل الآخر وتشير إليه، فهي من ناحية ثانية أشبه بالمرايا العاكسة لذهن "أميديو"

فـ "أميديو" حاضر في كل الصفحات لأنه الأقوى في نظر كل الشخصيات.

03- تشظي الزمن/ تشظي الهوية: إن اتّباع الزمن الدائري في بناء الرواية الذي يبدأ من نقطة اختفاء كلب السينيورة "إلزابتا فابياني" والعثور على الغلادياتور "لورانزو مانفريدي" مقتولا ساهم في استخدام تقنية الاسترجاع بكثافة، فالتكسير لخطية الزمن بارز منذ بداية الرواية؛ حيث تقوم كل شخصية من خلال اعتمادها على مخزون ذاكرتها بسرد حكايتها وعلاقتها ومعرفتها بأميديو. إن الاسترجاع هنا لا يكشف الظروف الحقيقية لبراءة أميديو فقط، بل إنه يسلّط الضوء على الأبعاد الأيديولوجية التي تربط علاقات المجتمع الإيطالي بالمهاجرين من عنصرية ومشاكل بيروقراطية.

تبدو هوية البطل مغيّبة وراء الألم وتفاقم أسئلة الكينونة، يظهر أميديو فاقدا الاتزان، متوترا، يتعارض مع كل شيء؛ مع ذاته، مع الآخر الذي لا يلين، مع الماضي، مع الحاضر والمستقبل المجهول... أسئلة الهوية تتعدد بتعدد الشخصيات، لهذا فقد شهدت الرواية «انفجار الهوية المركزية وانشطارها إلى هويات جزئية غالبا ما تنتمي إلى ثقافات فرعية تغلب عاملا واحدا أو عدة عوامل تبنى عليها هوية منفصلة واحتجاجية»[29]. أميديو مثقف من طبقة الأنتلجنسيا، على الرغم من قوة الأنا عنده إلا أن هويته تعرّضت لما يسمى "الاغتراب الثقافي"؛ هويته متشظية لأنها أمام مشكل الاختيار: الانتماء إلى الماضي (وهو دائرة حضارية مغلقة) أو الانتماء للغرب (دائرة غير مرحب به فيها)، وطبعا «هذا التحول ليس تلقائيا ولا يسيرا، بل هو تحوّل مصحوب بتعثّرات وتلكّؤات وآلام وبصراع بين الرموز والأدوات، وبين مطلب الخصوصية والرغبة في تملّك العالم ومواكبة مساره»[30].

الرواية تضعنا «أمام رحلة استبطانية تعاني حركة مزدوجة: تلاشي الذات الفاعلة، وفي الآن نفسه مجاهدتها من أجل أن تستعيد قدرتها على الفعل عبر البوح والمكاشفة والحلم بحياة أخرى»[31]، وهي رحلة مبطنة بالقلق الوجودي وأسئلة الكينونة، قلق ينبأ بالضبابية التي أضحت تكتنف المعادلة الكبرى التي تتحكم في حياة الإنسان فتجعله يعاني أشكالا من التمزق والتشتت وسط العدمية والفراغ الأخلاقي والقيمي... وفي خضمّ هذا الفراغ يخلخل الوعي فتطرح مشكلة الهوية الإنسانية بصورة عامة والهوية العربية بصورة خاصة.

03- الهوية ترسيخ وانتماء:

أ- الهوية بين جدل الواقع والذاكرة التاريخية: في "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" تضاعفت العتبات النصية وتداخلت مع التناص السردي والمتعاليات النصية مؤشرة كلها إلى دلالات عميقة مستندة في ذلك إلى التمثيل الثقافي من أعراف وطقوس وعادات وتقاليد وأديان وعقائد عبر استبطان ممتزج باستحضار مخزون الذاكرة وتأثيثه بما يتناسب ووقائع هذه السيرة:

- «ألم أقل إن أميديو لغز يحيّر العقول. إنه كرباعيات الشاعر الكبير عمر الخيام، تحتاج سنوات طويلة لإدراك مغزاها، عندئذ ينفتح قلبك على العالم»[32] ؛ إشارة إلى أن تصليب الذات هو أساس الانفتاح على العالم.

- إشارة إلى قول سيغموند فرويد في " الطوطم والمحرم": «إن الاسم الذي يحمله الإنسان هو عنصر أساسي من كيانه، بل قد يكون جزءا من روحه»[33]؛ فالاسم علامة الكينونة لاندماج الفرد في المجتمع.

- رأى أنطونيو ماريني أن الأوان حان و«الاعتراف أن الوحدة الإيطالية خطأ لا يغتفر"، وهو يدعو لقراءة كتاب كارلو ليفي«المسيح توقف في إيبولي»[34]؛ لبيان عمق حقيقة التباعد بين الشمال والجنوب.

- قراءة "يوم البومة" لليوناردو شاشا، إشارة إلى العلاقة بين الدول والمافيا التي تعرقل التواصل الحضاري.

- كقبول للتحاول مع الآخر الغربي؛ اقترح "أميديو" تسمية بارويز باسم جديد يليق بنجم سنمائي واعد: "بارفي برافو" بدلا من "بارويز منصور صمدي".

- أفاد أميديو من جملة واردة في إنجيل متى: «وستجعله الحقيقة حرا. لم يكن مقتنعا بأن الحقيقة تجعلنا أحرارا بل على العكس تماما قال إن الحقيقة هي قيد يجعلنا عبيدا»[35]؛ فهو مطلع على الإنجيل.

- استخدم اسم فيلم بيترو جرمي"الطلاق على الطريقة الإيطالية" للتعبير عن خلل إنتاج المجتمع .

- إشارة إلى كتاب سالو ستيو "حرب يوغرطا"، وإلى معرفته العميقة بالقديس أوغسطين«أنه مطّلع جدا على الاستعمار الروماني في إفريقيا. رأيته يقرأ باهتمام شديد كتاب سالو ستيو "حرب يوغرطا". ما شد انتباهي هو معرفته الجيدة بالقديس أوغسطين»[36]، وهو يردد عبارة:«...المجد والخلود لجدّي يوغرطا»[37].

– إشارة إلى مصطلح "القابلية للاستعمار" للمفكر مالك بن نبي؛ «رحت أفكر في مصطلح "القابلية للاستعمار" للمفكر مالك بن نبي. هذه القابلية نتاج الخيانة الداخلية: خيانة الأخ لأخيه! اللعنة على الخائن بوكو الذي غدر بيوغرطا وكل من اقتدى به»[38].

– «أنا لست في فم الذئب كما كان يقول كاتب ياسين»[39]؛ إشارة إلى الكتابة بلغة الآخر.

–الرغبة في التحرر من قيود الهوية (الذاكرة) التي تقود إلى الهاوية ما لم تنفرج إلى رحابة التواصل الحضاري: «المشكلة في معدة ذاكرتي التي لم تهضم جيدا ما تناولته قبل قدومي إلى روما...إنني أعاني من قرحة معدية في الذاكرة»[40]؛ وإشارة إلى جملة من رواية "الطاهر جاووت" "ابتداع الصحراء": «الناس السعداء ليس لهم عمر ولا ذاكرة. إنهم لا يحتاجون إلى الماضي»[41]، وكذا إيراد مقطع جاء في رواية أمين معلوف "ليون الإفريقي": "أعدت قراءة المقطع التالي عدة مرات حتى حفظته عن ظهر قلب: «خُتنت أنا حسن بن محمد الوزان، يوحنا ليون دوميديتشي، بيد مزين وعمدت بيد أحد البابوات، وأدعى اليوم "الإفريقي" ولكنني لست من إفريقيا ولا من أوروبا ولا من بلد العرب. وأعرف أيضا بالغرناطي والفاسي والزياتي ولكنني لم أصدر عن أي بلد، ولا عن أي مدينة، ولا عن أي قبيلة. فأنا ابن السبيل. ما أجمل أن نتحرر من قيود الهوية التي تقودنا إلى الهاوية! من أنا؟ من هو؟ من أنت؟ من أنتم؟ يا لها من أسئلة تافهة»[42].

–ارتباط سؤال الهوية بالموت والسياف (الذاكرة والقص)، شهرزاد وشهريار؛ «هل أنا شهرزاد؟ هي تحكي وأنا أعوي بلا ملل. كلانا يفر من الموت ويلفنا غطاء الليل. هل هناك فائدة ترجى من القص؟ آه من الذاكرة الملعونة! الذاكرة صخرة سيزيف اللعينة. من أنا؟ أحمد أم أميديو؟.... علميني يا سيدتي الجليلة حرفة التملص من الموت. علميني يا شهرزاد كيف أكر وأفرّ من غضب شهريار وحقده. علميني كيف أبعد سيف شهريار عن رقبتي. علميني يا شهرزاد كيف أنتصر على شهريار الذي يسكنني. ذاكرتي هي شهريار. أووووووو.. ذاكرتي هي شهريار. أووووووو.. ذاكرتي هي شهريار. أووووووو.. ذاكرتي هي شهريار. أووووووو.. »[43].

– أميديو يلقي التحية الإسلامية «السلام عليكم! إنه يعرف الإسلام معرفة جيدة»[44]، وقد جاء الخطاب الروائي متضمنا للحديث الشريف «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[45]، ولقوله تعالى: «لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»[46] لتأكيد ضرورة العودة إلى الأصل. وقد أبدى المسلمون رأيهم بالحوار المسيحي والإسلامي الذي يدعم الأمن والسلم الدوليين فقد قال إقبال أمير الله: «ما أجمل أن ترى المسيحي والمسلم كأخوين؛ لا فرق بين عيسى ومحمد، ولا فرق بين المسيحية والإسلام؛ ولا فرق بين الإنجيل والقرآن!»[47]. أميديو شخص مثقف ومتحضر «فالفكرة الدينية تتدخّل إما بطريقة مباشرة، وإما بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها، في التركيبة المتآلفة لحضارة ما، وفي تشكيل إرادتها»[48].

– توظيف الأمثال: المثل «الأقارب مثل العقارب»[49]؛ إشارة إلى أن التقارب الحضاري يبدأ من ألفة القريب وحصانته إلى ألفة البعيد وضمانته بالمشاركة الإنسانية في ترسيخ حقيقة الوجود، وليس استهداف الآخر من أجل المصلحة الذاتية.

– جاء قوله «فاقد الشيء لا يعطيه»[50]؛ لنسب العنصرية إلى طبيعة العنصري وفق مصالحه، مشكلته مع نفسه لا مع الآخرين.

–«لا يجتمع سيفان في غمد واحد»[51]كإشارة إلى استحالة الجمع بين الهويتين الإيرانية والإيطالية.

–«ترك البئر بغطائه»[52]إشارة إلى صعوبة الاقتراب من الحقيقة.

–«الرجوع إلى الأصل فضيلة»[53] لبيان ضرورة التشبث بالانتماء والانتساب.

لقد وظّف الروائي عمارة لخوص خطابات الغير توظيفا مغايرا، لم يطرح مشاكل الإنسان المهاجر طرحا صريحا واضحا ودقيقا، بل فضل البقاء في مجال الغموض الأيديولوجي بالتستّر وراء أغطية شفافة، وبما أنه أمام مصادمة أيديولوجية فإنه يصبح الارتكاز على المرجعية التاريخية –كأرضية صلبة– أمرا لا مفرّ منه، فـ «التراث هو الذي يكوّن الهوية، فإذا تشتت هذا التراث أو غشاه الضباب، تبعثرت الهوية وبهتت، وتسرّبت إليها – تبعا لذلك– مؤثرات دخيلة تطمس كينونتها الأصيلة وتشوّه ذاتيّتها، وتفقدها ذلك "التميز القومي" المرتبط بـ"التمايز الحضاري"؛ أي الهوية»[54].

ب– الهوية واللغة: اللغة من أهم مقومات الأمة ومشخصاتها، بل هي روح الأمة وحياتها ومحور تشكيل هويتها الثقافية، «هي القوة الطبيعية الأولى لأمة ما، فهي صدى روحها وأصالتها، وهي لسان شخصيتها والحافظة لتراثها، والضامنة لاستمرارها الروحي والرابطة بين أجيالها إلى آخر الأيام»[55]، لقد وعى "أميديو" فكرة أن اللغة هي أداة الفعل الحضاري ووسيلة التكوين والتشكيل الثقافي فتعلم اللغة الإيطالية ليحقق الاتزان في حياته الجديدة ويجعل منها سندا شرعيا له لبناء هوية ما لنفسه تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بتصور حداثي حتى يصل للعالم برمته. ولإثراء لغته جعل من القراءة سبيلا في مواجهة التحديات التي تعترض سبيله، إنه يقرأ طيفا كبيرا من أنماط اللغة يفوق حتى ما ينتجه هو نفسه وذلك حتى تكون لغته الحصن المنيع الذي يحقق له الكينونة والوجود، لقد «كان يسمي قاموس زينغاريلي بالمرضعة! كان بالفعل كالرضيع الذي يتغذّى من حليب أمه عدة مرات في اليوم. كان يقرأ بصوت مرتفع ليحسّن قراءته ولا يتضايق عندما كنت أنبّهه إلى بعض الأخطاء في النطق. كان لا يملّ من مراجعة القاموس لفهم الكلمات الصعبة، كان بالفعل يرضع من الإيطالية كل يوم»[56].

بإتقانه للغة الإيطالية حقق أميديو التوازن لذاته وأسس لهويّة جديدة، وقد ساعده في بناء هذه الهوية وظيفته كمترجم؛ إذا كانت الترجمة نظريا هي من مفاتيح إثراء الهوية الثقافية للفرد والمجتمع فإنها عمليا قد سمحت لأميديو أن يجول في جغرافيا اللغة الإيطالية دون كلل أو ملل، فهو يقول: «أما أنا فأحب عملي كمترجم كثيرا. الترجمة هي رحلة بحرية ممتعة من مرفأ إلى آخر، أحيانا أعتبر نفسي مهرّبا محترفا: أعبر حدود اللغة محمّلا بالغنائم من كلمات وأفكار وصور واستعارات»[57] فالترجمة هي الباب المنيع للمثاقفة، بها عبر أميديو إلى اللغة والثقافة الإيطالية، فاكتسب هوية جديدة هي الهوية الإيطالية.

من الأنساق الثقافية في الرواية التي صنعت صداما ميثالغويا: الاسم، الطبخ.

01– الاسم: "أميديو"؛ «اسمه الحقيقي أحمد وهو اسم عظيم لأنه اسم الرسول وقد ذكر في القرآن والإنجيل. بصراحة أنا لا أحترم كل من يغيّر اسمه ويتنكّر لأصله»[58]، فلماذا سمّى نفسه بأميديو؟

يبدو أن الغموض الذي لف شخصية "أميديو" مصدره الأول هو الاسم بالذات، فلا يعقل أن يكون هذا الشاب الذي يحمل اسما "إيطاليا" مرتكب الجريمة. لقد «كان الاسم هو الضمان الحقيقي الذي جعل سكان العمارة يرفضون فكرة أن يكون هو من قتل الغلادياتور في المصعد. وكان اسمه هو تأشيرة القبول به في المجتمع الجديد، الذي مكّنه من الاندماج داخل منظومات علاماته الثقافية»[59].

"أحمد" كما يبدو ليس هو من غيّر اسمه، بل خضع اسمه للنسق الصوتي للغة الإيطالية؛ يقول ساندرو دنديني «أمد (amed) هو أمديو (amedo) ! من عادتنا في روما حذف الحروف الأولى أو الوسطى أو الأخيرة من الأسماء»[60]، غير أن ذلك لقى استحسانا من أمديو لأن الاسم تأشيرة لغوية لصيقة بالهوية، تغييره بما يتناسب والثقافة الجديدة يضمن سهولة الانفتاح على الآخر وييسّر سبل التفاوض معه، ولعل هذا ما قصده أميديو حين قال: «قرأت في مجلة "إسبريسو" مقالا لعالم نفس ينصح بتغيير الأسماء من حين لآخر لأن ذلك يسمح بخلق نوع من التوازن بين الشخصيات المتعددة التي تتنازع كل واحد منا. قال

إن تغيير الاسم يساعد على العيش أفضل لأنه يخفف من أعباء الذاكرة. إذ أنا في مأمن من انفصام الشخصية بسبب اسمي الإيطالي، لا ضرر من أمديو،لكن هل هناك نزاع صامت بين أميديو وأحمد؟ سأبحث عن الجواب في العواء:أووووووو.. »[61].

02- الطبخ: الطبخ في الرواية نسق مضمر يعبر عن الهوية الثقافية للمجتمع. فالبيتزا هي وجبة إيطالية من الدرجة الأولى، وحبها أو كرهها لابد أن يوحي بشيء ما.

لقد كان بارويز منصور صمدي الذي جاء من إيران لا يخفي كرهه للبيتزا؛ «أنا أكره البيتزا كرها لا نظير له، لكن هذا لا يعني أنني أكره كل من يأكلها! هذه الملاحظة في غاية الأهمية، فلتكن الأمور واضحة من البداية: أنا لا أكنّ أي عداء للإيطاليين... إن حرية الأكل والتعبير والاعتقاد والديمقراطية مكفولة في هذا البلد! أريد أن أعرف: هل يعاقب القانون من يكره البيتزا أم لا؟»[62]. مشكلة بارويز ليست مع البيتزا كأكلة البيتزا هي فقط واجهة ثقافية تشير إلى عمق العنصرية التي يعاني منها المهاجرون، جوع بارويز هو ليس جوعا بيولوجيا بالمعنى الظاهري وإنما هو معاناة من آثار الخدوش المرسومة على هويته الأصيلة المتشبث بها؛ «بالنسبة لبارويز الطبخ الإيراني بتوابله وروائحه هو ما تبقى من الذاكرة والحنين ورائحة الأحبة معا. هذا الطبخ هو الذي يربطه بشيراز التي لم يفارقها أبدا»[63].

أما أميديو فيشبه اللغز حسب تعبير بارويز، هو مختلف عن المهاجرين الآخرين تمام الاختلاف، ومختلف أيضا عن بارويز الأصيل في ذوقه الغذائي. أميديو مدمن من نوع خاص على البيتزا؛ «لاشك أن البيتزا هي أكلتي المفضّلة، لا أستطيع الاستغناء عنها، كل أعراض الإدمان بارزة إذا، امتزجت بدمي كما تفعل الكحول بدم المدمن. عما قريب أذوب في العجين وأصير بدوري بيتزا! »[64]، غير أن حب أميديو للبيتزا هو ليس حبا حقيقيا، فالبيتزا نسق ثقافي مضمر اشتهاؤها أو كرهها يشي برغبة الاندماج والحلول في الثقافة الإيطالية من عدمه.

خاتمة:

"كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك" عمل روائي متميّز يقوم على بنية سردية فيها من الخروج عن المألوف وتشويه تقاليد الكتابة الروائية ما يجعله عملا أصيلا يرقى إلى مصاف الكتابات العالمية التي تصب في تيار الوعي. عبّر عمارة لخوص من خلال روايته عن قضية الهوية بين داع الالتفاف حول (الذات) وتمثلاتها الثقافية من لغة وأعراف وعادات وتقاليد وعقائد وبين داع الانعتاق بمجاوزة الذاكرة وإكراهات التاريخ وبلوغ عتبة (الآخر) في شكل حوار بين الثقافات والحضارات.

كشفت الرواية عن عسر الحوار بين الحضارات بين العرب والغرب، كما ساهمت في كشف الغطاء الأيديولوجي بالإشارة إلى أن العولمة التي تركز على الهيمنة اللغوية والعقائدية ما هي إلا امتداد للهيمنة الاستعمارية التقليدية على العرب والمسلمين.

جاءت الرواية فنيا على شاكلة "الرواية البوليفونية"؛ إذ تعددت الشخصيات وقدّمت بطريقة المرايا (الكلايدسكوب)؛ حيث تقوم الشخصية الساردة بالكشف عن أيديولوجيّتها وهي تتحدّث عن الشخصية المحورية "أميديو". استخدم الروائي تقنيات قصص تيار الوعي؛ المونولوج والمناجاة المستفيضة، التناص، الرمز، تشظي الزمن وكسر خطية السرد بنقل الخطاب من المباشرة والسطحية إلى التداولية، إذ أن كل حدث ينفصل عن الآخر ويستقل عنه فلا يكون مرتبطا بما قبله ارتباطا سببيا ولا تتابعيا وإنما يرتبط بناء على ذاكرة المتلقي... التشرذم بين الزمنين الماضي والحاضر جعل الهويّتين في مقابل بعضهما؛ النص ينتصر للهوية الجديدة لكنها هوية تتشرذم في النهاية، وهذا يوحي ببطلان مشروع استبدال الهوية، فالخصوصيات الثقافية لا مفر منها في الحوار بين الثقافات.

الهوامش:

1- منى بشلم: المحكي الروائي العربي. أسئلة الذات والمجتمع (كتاب جماعي)، دار الألمعية، الجزائر، ط1، 2014، ص152

2_ Chris barker : the sage dictionary of cultural studies , sage publications Itd, London,first published,2004, p49.

3- ليندة مسالي: إشكالية المتخيل السردي في الرواية النسوية الجزائرية، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، دار الأمل، تيزي وزو، عدد 4، 2009، ص121.

4- إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر. عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية 1990-1996، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن- فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2008، ص 124. نقلا عن: الجراري عباس: ندوة "الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية: الأخذ والعطاء"، موضوع: " الثقافة الإسلامية ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى ماضيا وحاضرا" ص35.

5- عبد العزيز بوالشعير: الهوية الثقافية في ظل تحديات العولمة، ملتقى سؤال الهوية والإنية، الملتقى الوطني الأول : سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، منشورات مخبر حوار الحضارات والعولمة، جامعة الحاج لخضر، باتنة- الجزائر، 2010، ص307. نقلا عن: إدوارد بيرنت تايلور: الثقافة البدائية، ج1، ص 1-12.

6- محمد سبيلا: مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009، ص157

7- المرجع نفسه، ص149.

8- عبد الله أبو هيف: صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، عدد 3-4، 2008، ص109- 110.

9- عبد الرزاق الداوي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر. هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 1992، ص 95- 96.

10- صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات –إعادة صنع النظام العالمي-، ترجمة: طلعت الشايب، ط2، 1999، ص37.

11- إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر 155. نقلا عن: محفوظ محمد: التجريد الثقافي في المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، عدد 12، ص39

12- العربي حربوش: هويتنا بين الإرث الثقافي والمعطى الجيني، الملتقى الوطني الأول : سؤال الهوية والإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم في ظل العولمة، ص146

13- منى بشلم: المحكي الروائي العربي. أسئلة الذات والمجتمع، ص164.

14- المرجع نفسه، ص164

15- خالد حسين حسين: في نظرية العنوان. مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2007 ، ص412.

16- هريسكر فيتر: الأنثروبولوجيا الثقافية، ترجمة: رياح النفاخ، ط1، وزارة الثقافة، بيروت، 1973، ص13.

17- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك. رواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2006، ص 35.

18- المصدر نفسه، ص78

19- نفسه، ص86.

20- نفسه، ص98.

21- نفسه، ص120

22- نفسه، ص126

23- عبد الملك مرتاض: نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 240، 1998، ص73.

24- المرجع نفسه، ص120

25- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص30.

26- المصدر نفسه، ص94.

27- نفسه، ص137.

28- محمد إبراهيم عيد: الهوية. القلق. الإبداع، دار القاهرة، ط1، 2002، ص 140

29- محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، منشورات تالة، الجزائر، ط1، 2007، ص 91.

30- محمد سبيلا: مدارات الحداثة، ص152.

31- محمد برادة: الذات في السرد الروائي. دراسات نقدية، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص22.

32- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك، ص12.

33- المصدر نفسه، ص60

34- نفسه، ص85

35- نفسه، ص87.

36- نفسه، ص86.

37- نفسه، ص92.

38- نفسه، ص91.

39- نفسه، ص149.

40- نفسه، ص 126.

41- نفسه، ص128.

42- نفسه، ص126.

43- نفسه، ص150- 151.

44- نفسه، ص50.

45- نفسه، ص50.

46- نفسه، ص130.

47- نفسه، ص50.

48- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة. القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1، 1991، ص60- 61.

49- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك ، ص47

50- المصدر نفسه، ص57.

51- نفسه، ص29.

52- نفسه، ص132.

53- نفسه، الصفحة نفسها.

54- إبراهيم محمود عبد الباقي: الخطاب العربي المعاصر، ص103، نقلا عن: عبد الله أبو هيف، قضية تأصيل المسرح العربي في التفكير الأدبي العربي الراهن، مجلة الوحدة، عدد 94،95، ص89.

55- عليش لعموري: المقومات الأساسية في بناء الإنية عند مولود قاسم نايت بلقاسم، ص390، ملتقى: سؤال الهوية والإنية، نقلا عن: مولود قاسم: أنية الأصالة، ص 68.

56- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك ، ص120.

57- المصدر نفسه، ص125.

58- نفسه، ص129.

59- منى بشلم: المحكي الروائي العربي، ص178.

60- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضّك ، ص105.

61- المصدر نفسه، ص114.

62- نفسه، ص10.

63- نفسه، ص29.

64- نفسه، ص28.